نظرة في تاريخ الأدب الجاهلي للدكتور هدارة

د. ناهد أحمد الشعراوي*

بدأت صلتي بأستاذنا الجليل الدكتور محمد مصطفى هدارة منذ أكثر من أربعة وعشرين عاماً، حينما التحقت بقسم اللغة العربية في كلية الآداب.

وفي هذه الأيام، ونحن نحتفل باستقباله عامه الأول بعد الخامسة والستين أراه لم يتغير عما عهدناه عليه -نحن طلابه ومريديه- في مشيته الوقور، وصوته الهادئ، ونظراته الجادة الصارمة التي تنبعث من نفس طيبة خيرة، وخلقه الدمث، ورقته وعذوبته، ولسانه العفيف.

نسأل الله أن يمد له في العمر، وأن يظل أباً وراعياً لأجيال من تلاميذه ومريديه الكثيرين، وحاملاً لمشعل الثقافة العربية.

وقد كان ما تعلمناه من أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة كثيراً، ليس من خلال عمله في التدريس فحسب، وإنما أيضاً من خلال ما أثرى به المكتبة العربية من مؤلفات متنوعة، فالذي يتأمل مؤلفاته، يروعه ذلك الإنتاج بغزارته وتنوعه وجودته: فهو أولاً مؤرخ للأدب، كتب في فكرة التاريخ الأدبي بالقرون، وقدم دراسات في الأدب العربي القديم (في العصر الجاهلي - في القرن الأول الهجري - في القرن الثاني الهجري)، وفي الأدب العربي الحديث (التجديد في شعر المهجر - تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان - دراسات في الشعر العربي

---

* كلية الآداب - جامعة الإسكندرية.

الحديث -دراسات في النثر العربي الحديث- دراسات عن الشعراء المحدثين والمعاصرين)، وفي التراجم الأدبية (المأمون الخليفة العالم ومنهجه في الترجمة الأدبية).

وهو ثانياً ناقد متمكن من أبرز النقاد في الوطن العربي فله ((منهج جديد في دراسة السرقات الأدبية - مقالات في النقد الأدبي - دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق)).

وهو ثالثاً مترجم عن الإنجليزية ((الإسلام لألفرد جيوم - يوميات هيروشيما لهاشيا - ملفل الملاح الصغير لجين جولد - قاهر القطب الجنوبي لريتشارد بيرد - في عالم القصة لبرنارد ديفوتو)).

وهو رابعاً مؤلف في التربية والتعليم في مصر وفي البلاد العربية، وهو خامساً صاحب اتجاهات إبداعية في الشعر والرواية والقصة القصيرة.

الأدب العربي في العصر الجاهلي

حين عنَّ لي أن أشارك في الكتابة عن هذه الشخصية العلمية والأدبية البعيدة الغور، المتعددة الجوانب، جعلت من كتابه ((الأدب العربي في العصر الجاهلي)) مداراً للحديث، وشجعني على ذلك، أنني تعلمت دروس الأدب الجاهلي على يد أستاذي في بداية دراستي الجامعية.

ولعل السمة الواضحة في دراسات أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة هي الأصالة من ناحية، والتجديد من ناحية أخرى، تلك هي السمة الواضحة المعالم، والتي تتضح لمن يمعن النظر في سياق دراساته ومناهجه النقدية.

وكتابه (الأدب العربي في العصر الجاهلي) يتميز فيه بأنه يبتعد -إلى حد كبير- عن الطريق المألوف في التأريخ الأدبي، الذي يبدأ عادة بمقدمات طويلة عن الزمان والمكان، فيدرس العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العصر الأدبي، ويهتم في كتابه بصفة خاصة بدراسة أصول العرب الأولى، وجغرافية جزيرتهم، وتوزعهم القبلي، ومعتقداتهم القديمة، وأيامهم، وكل ما يتعلق بحياتهم وكياتهم.

ثم يدرس موضوعات الشعر وأغراضه، ويتناول طوائف الشعراء فيه، ثم يحلل خصائص الشعر وظواهره الفنية.

لقد تنكب الطريق الذي سار فيه كل من درس الحياة الأدبية الجاهلية وما تلاها من عصور عامداً، لأنه يقصد أن يعبر بصورة صادقة عن خلاصة تجربته في محاضراته على مدى عشرين عاماً سبقت تأليف الكتاب، فلم يشأ إضافة دراسة تقليدية للدراسات المألوفة عن عصور الأدب العربي، التي تزخر بها المكتبة العربية، وإنما أراد أن يصل بالقارئ بأيسر سبيل، إلى القضايا الرئيسية في تاريخ الشعر العربي، وإلى موضوعاته، وأهم شعرائه، وظواهره الفنية، وعناصره الجمالية، وإلى أجمل الأشعار التي أبدعتها قرائحهم.

هذه الطريقة -غير التقليدية- تقدم للقارئ من الحقائق الأدبية في كل عصر ما ينبغي أن يصل إليه بطريقة سائغة، وتهيئ له من خلال النصوص الشعرية فهم كل اتجاهات الشعر العربي، وقضاياه الرئيسية وظواهره الفنية، ومعرفة أبرز الشعراء في كل عصر، بعيداً عن الإسهاب التاريخي، والمقدمات، والحشو والنهج المدرسي في التركيز على حياة الشعراء.

ويلحق بدراسة الظواهر الفنية والموضوعية في الشعر الجاهلي بعض البحوث الخاصة بالشعر في ذلك العصر، أو ببعض الشعراء، وكذلك بعض النصوص المكملة للدراسة.

ومن أهم الأفكار التي حاول بها الدكتور محمد مصطفى هدارة تفسير دوافع الشعراء لتسجيل أشعارهم، فكرة الجانب الذاتي الذي يعبر تعبيراً مباشراً عن النفس الإنسانية في كل حالاتها، دون تزييف للمشاعر، أو الاستعانة بالخيال.

((فالشعر الجاهلي قبل كل شيء غنائي، يعبر به الشاعر عن ذاته، وما يعتلج فيها من خطرات نفسية، وعن كل ما ينتابه من أحاسيس ونوازع تجاه المواقف والبشر والأشياء من حوله، صحيح أن الشاعر الجاهلي كان مرتبطاً بقبيلته ارتباطاً وثيقاً، ولكن ذلك في الحدود التي تلتزم بها القبيلة في حربها وسلامها، وحين يبتعد عن هذه الرابطة القبلية لا ينسى عواطفه ونوازعه بكل ما فيها من خير وشر، بحيث نجد صورة متكاملة للإنسان، وهو في تصوير علاقته بغيره يقترب من النموذج الإنساني السامي كما يتصوره إن كان في موقف مدح وإعجاب، ويداني النموذج الإنساني الكريه كما يتمثله إن كان في موقف هجاء وإعراض))[1].

وعن هذا الجانب يقول: ((وهذا الجانب الذاتي في أشعار الجاهليين لا تفي به القيم الثابتة التي كان المجتمع الجاهلي متفقاً عليها كمدح الكرم مثلاً، وذم البخل، والإشادة بالشجاعة، والاستهانة بالجبن، بل تفي بها مواقف فردية يختلف فيها كل

(١) الأدب العربي في العصر الجاهلي ص٢٩.

شاعر عن سواه))[١]، ويأتي في الكتاب بمواقف ذاتية لشعراء بعينهم يعبرون عنها في أشعارهم.

وقدم الكتاب دراسة رائدة عن الصورة المثالية للإنسان في الشعر الجاهلي، وهي التي يتكلف لها الشاعر، ويجتهد فنه في تنميقها، ويورد نماذج لهذه الصورة المثالية في المدح والفخر والاعتذاريات، ويقف عند صورة المرأة التي أتت في الشعر الجاهلي مثالية دائماً.

والكتاب في جملته يعد دراسة وافية أراد بها أن يجلو صورة حياة الشعر العربي عند نشأته، والدكتور محمد مصطفى هدارة بخبرته الطويلة وذوقه المرهف، يعرف كيف ينتقي مختارات من الشعر الجاهلي كنصوص مكملة للدراسة ذيل بها الكتاب.

هذا جانب واحد من جوانب نتاج أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة، وهو يمثل اهتمامه بتاريخ الأدب العربي، ودراسته من وجهة جديدة، رعاه الله وأطال بقاءه، حتى يظل علماً يهتدى به، ويستضاء بعمله وخلقه وكريم سجاياه.

(١) الموضع السابق.